

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطب الإذاعية - الخطبة : 65 - التنمية الأخلاقية - متى تغضب ؟.

23-04-2004

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله، وأصحابه الطيبين الطاهرين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين .

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير أيها الإخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام

إن صناعة الإنسان الكامل، وبناء الأسرة المتماسكة، وإقامة المجتمع الفاضل، هي من أسمى أهداف بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

لكن طوفان الفساد، في آخر الزمان، حمل من الأوبئة الخلقية الشيء الكثير، حمل: الكذب والدجل، والحسد والنفاق، والفسق والفجور، والظلم والخيانة، والحمية والعصبية، والغش والتدليس، والطمع والجشع، والمكر والحيلة، والفحش والخلاعة، والحرص والبخل، والتترف والتبذير، وسوء الظن بالله والرياء، وعقوق الوالدين وإهمال الأولاد، وأكل السحت والمال الحرام، وأكل مال اليتيم ظلماً . إن ظاهرة النفاق التي تحدت عنها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة بشكل مطول تعني خلافاً في مطابقة الأقوال للمعتقدات، وهذا هو (النفاق الاعترادي) الذي يخرج صاحبه من الملة، أما التباين بين الأقوال والأفعال، فيعبر عنه (بالنفاق العملي)، وهذا شاع كثيراً في المجتمع، ومهمة التنمية الأخلاقية تطهير حياة المسلمين من كل هذا .

إن أهم مصدر للسعادة والهناء انسجام واقع المرء مع ما يعتقد، حيث يشعر المرء بتيار يجتاحه من البهجة والارتياح والأمن كلما تخطى عقبة من العقبات التي تحول بينه وبين (التناقض) مع مثله وقيمه العليا.

إن الملذات الحسية لا تخرق غشاء القلب، بل ولا تحوم حوله، لكن الذي يملأ كيان المرء كله بالسعادة والطمأنينة هو نشوة الانتصار على الأهواء والمغريات، وضغوطات الشهوات والمصالح. إن السعادة الحقة لا تجلب أبداً من الخارج، وإنما هي شعاع من نور، يولد، ويكبر في داخل الإنسان،

وبضيء جوانب الحياة كلها، ويجعلها أكثر قيمة ومنطقية، وأكثر تهيئاً للنمو والتقدم والاستمرار، وكل ذلك مرهون بأوضاع تسود فيها الأحكام الأخلاقية، ويعلو فيها صوت الالتزام والاستقامة، وترتفع في أرجائها إشراقات النفس !.

إن القاعدة النفسية الأخلاقية في أي مجتمع هي التي تتحمل الأثقال التي تنتج عن طبيعة الحياة المادية والاجتماعية، وعن الانتكاسات التي تصاب بها الأمة في ميادين الحياة المختلفة.

إن هذه القاعدة هي التي تمكن الناس من تحمل الظروف الصعبة من دون أن يتحللوا أو أن ينحرفوا ؛ فحين يصاب الناس بضائقة اقتصادية شديدة فإن القاعدة الأخلاقية تدفعهم إلى إغاثة الملهوف وإطعام الجائع، والصبر على المدين المعسر، إلى جانب التماسك الشخصي، وعدم الرضوخ لمقتضيات الظروف الصعبة ؛ فجدد المسلم الحق يمتنع عن كل أنواع الكسب الحرام مع فاقته الشديدة، وذلك اتكاءً على ما لديه من قيم ومقاومة إيمانية لدواعي التحلل.

إن هذه القاعدة هي الرصيد الاحتياطي الضخم الذي تعتمد عليه الأمم في ترميم العديد من أنواع الخلل في حياتها.

ومن هنا ندرك حجم الجريمة التي ارتكبت في حق هذه الأمة حينما دُفعت دفعاً من قبل أعدائها على مستوى التنظير، وعلى مستوى العمل إلى أن تجعل القيم الأخلاقية والنفسية في المرتبة الدنيا من اهتماماتها ؛ فلما واجهه الناس ما واجهوه من ضائقات في العيش، ومن شح في متطلبات الحياة الكريمة، لم يجدوا لديهم سنداً خلقياً كريماً يعتمدون عليه في الصمود أمام المغريات وأمام أسباب الانحدار المختلفة !.

إن الذين نكّن لهم عظيم الاحترام ليسوا أولئك الذين يملكون كثيراً من المال أو الدهاء والمكر أو القوة الجسدية الخارقة، وإنما نكن عظيم الاحترام لأولئك الذين يملكون خُلق (التسامي) وخلق الترفع عن سفاسف الأمور، وألئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم، وأولئك الذين يملكون فضيلة الانتظار والتضحية بالعاجل في سبيل الأجل، والإيثار مع مسيس الحاجة إلى ما يؤثرونه... إنه بالإمكان أن نقول: إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع إيماني أخلاقي، أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسي من طابع الاستقامة والنبيل والتضحية... وليس من التفوق في الحروب أو العلوم أو العمران.

ولعل الطريق الوحيد إلى كسر أغلال الشهوات يكون عن طريق إحداث (انتفاضة) إيمانية أخلاقية يستعلي بها المسلم على المعطيات المادية للوضع الحضاري الراهن، ويلتفت إلى إثراء حياته بوسائل كثيرة، لا تحتاج إلى المال.

إن دراسة الحضارات توقفتنا على حقيقة كبرى، وهي أن مصير الإنسان كان يتوقف دائماً على أمرين: علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان. والبعد النفسي والأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين. وحينما ينحط الإنسان يتحول عن عبادته لربه إلى عبادته شهواته. وتعتمد علاقته بالآخرين على القوة لا على الرحمة، وعلى العنف لا على التفاهم، وينصرف الإنسان عن العناية بالنفس إلى العناية بالجسد، وعن الاهتمام بالمبدأ إلى الاهتمام بالمصلحة، ويتحول المجتمع كله إلى غابة يحس كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين، كما أنه من الممكن أن يكون فريسة لأي واحد منهم!. هذا هو مجتمع الغاب. والطريق الوحيد للحيلولة دون هذه الحالة يكمن في تدعيم الرقابة الذاتية، وتعزيز علاقة العبد بربه - جل وعلى - وتحفيز الإرادة الخيرة في الناس. وهذا الحل وإن كان مكلفاً على المدى القريب. فإنه سفينة نوح على المدى البعيد.

لن يكون في إمكان أفضل النظم الاجتماعية، ولا في إمكان أسمى العقوبات الصارمة أن تقوم الاعوجاج، ولا أن تملأ الفراغ الناشئ عن ذبول النفس، وانحطاط القيم؛ فالعقوبات الصارمة لا تنشئ مجتمعاً لكنها تحميه. والنظم مهما كانت مُحكَّمة، ومتقنة لن تحول دون تجاوز الإنسان لها، وتأويلها بما يجهضها، وكل الحضارات المندثرة تركت تنظيماتها وأدوات ضبطها خلفها شاهدةً على نفسها بالعقم والعجز!.

لابد أن نكون على يقين من أن تيار الشهوات والنزوات الجارف لا يمكن أن يقابل إلا بتيار إيماني متدقق من المشاعر والأحاسيس الإنسانية؛ فوظيفة الفكر الدلالة على الطريق، وعلى الأساليب والأدوات المناسبة للعمل؛ ولكن الذي نستمد منه الطاقة على الاندفاع في طريق الخير، والقوة على كبح جماح الشهوات هو الإيمان العميق، ورصيدنا من المشاعر الحميمة التي هي ثمرة الاتصال بالله!. وإن كثيراً من الشباب الذين جرفهم تيار الجنس والمجون والخلاعة لم يكونوا بحاجة إلى أدلة على فضل العفة والاستقامة، وإنما كانوا بحاجة إلى شيء من المعاني التي تفيض على القلب بسبب تذوق طعم العبودية الحقّة لله، والإحساس الصادق بمعية الله تعالى لهم وإطلاعه عليهم.

حين يبلغ التقدم التقني أقصى مداه، ويشعر المرء بالثخمة من أدوات (التحكّم عن بعد) وكل ما يجعل الحياة خالية من التحديات حينئذ تنبعث في النفس أشواق قديمة جديدة، هي أشواق النفس إلى ما وراء المادة، إلى عالم التراحم، على عالم التعاطف إلى عالم التضحية ببعض المكاسب من أجل استمرار حياة الجميع.

إن الأخلاقيين اليوم هم القادة غداً، وهل يعرف فضل الماء إلا عند اشتداد الظمأ.

إن الإسلام يعلمنا أن بالإمكان تصحيح المسار قبل أن نرتطم بقاع الهاوية، كما يعلمنا أنه بالإمكان أن نتحول من الخسارة إلى الربح قبل أن يصبح الرصيد صفراً ؛ وذلك إذا أصغينا إلى نداء الفطرة في أعماقنا، وضغطنا على بعض حاجات الجسد من أجل إنعاش النفس، وفكرنا ملياً بما هو آت !.

لابدّ من القول: إن المسألة الحاسمة في مجال الأخلاق هي (إطارها المرجعي) بمعنى ما الجهة التي نستمد منها الحكم على حُسن الخُلق أو قبحه، وما الجهة التي ستتولى الإثابة أو المعاقبة على ذلك الخُلق. في العالم الغربي تحول الإطار المرجعي للأخلاق (من الوحي) إلى (العقل)، وهذا العقل بعيداً عن الوحي يقود إلى مبدأ خطير جداً وهو مبدأ (النسبية في الأخلاق)، حيث أصبح الطريق ممهداً لتحويل الرذائل إلى فضائل.

وأصبح النمو الاقتصادي صنماً يعبد من دون الله وتُقدّم له كل القرابين .

لاشكّ أن علينا أن نبذل جهوداً ضخمة لإحياء أخلاق جديدة تلبي شروط العيش في عصر معقّد، وتستند في الوقت نفسه إلى المبادئ الإسلامية، والقيم الإسلامية، إلا أن التقدم الحاسم في المجال الأخلاقي ربما كان بحاجة إلى إحراز تقدم في المجالات السياسية والحضارية، حيث أن (التخلف) نفسه يحول دون الإبداعات الأخلاقية الأصيلة.

ومما لا يخفى أن الثقافة العلمانية وكثيراً من الثقافات التي فرضت علينا أهملت الميدان الأخلاقي إهمالاً شبه تام، وذلك نتيجةً للتأثر بفلسفة وضعية، جعلت (العلم المادي) هدف كل تقدم، وصار هذا العلم المادي علماً، وأخلاقاً، وأدباً وقيماً ! وصارت الأخلاق الأصيلة الإسلامية تُصوّر على أنها قيود مفروضة بسبب الجهل، وعطالة التقاليد، وأنتك ضعيف لأنك أخلاقي، أو أنتك أخلاقي لأنك ضعيف، وأن أخلاق المسلمين أفقدتهم المقدرة على استيعاب الحضارة الحديثة ! وصارت الأخلاق كما تصورها التيارات العلمانية تعني سذاجة في الشخص، وبساطة في تركيبه، وتثير الشك في صدق موقفه، بل ربما دفعت إلى اتهامه بشتى التهم .

نتيجة لتهميش كثير من كتابنا القضايا الأخلاقية، ونتيجة لسوء التخطيط وسوء الظروف المعيشية لكثير من الناس، سادت لدينا أمراض أخلاقية عديدة وخطيرة، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر: إن كثيراً من الناس يعيش اليوم دون أية أهداف سامية، فتأمين الحاجات الضرورية هو شغل الناس الشاغل، وامتلاك بيت صغير يعد نصراً كبيراً في معركة شرسة !.

وقد صار الواحد من الناس أشبه بالحيوان البرّي الذي يقضي حياته في حديقة حيوانات، فهو ليس معزولاً عن بيئته الطبيعية فحسب، بل | معزول عن أعماق ذاته، وعن هويته، وعن سر وجوده، وعن غاية وجوده !.

ويعاني السواد الأعظم من الناس من ضعف الإحساس بـ (الواجب) وهو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية ؛ ليعكس تسامي الإنسان أو قدرته على الالتزام تجاه غيره، والتضحية من أجل غيره. وما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتماء إلى الجماعة وبالرغبة في الذوبان فيها. فإذا عجز الإنسان عن الالتزام الجماعي أباح لنفسه كل ما استطاع أن يحرّمه على غيره.

وهناك فريق من المسلمين من نوع آخر يعاني على الصعيد الحضاري من ذبول الروح الجماعية لديه، وهو ينزع باستمرار إلى نوع من الانطواء على الذات والأسرة والحي والقرية والقبيلة، وهو نزوع ذو أثر سلبي على الإحساس بمصلحة الأمة والحرص على تقدمها .

وإلى جانب ذلك هناك عادات سيئة عديدة تتعلق بالعمل والاستهلاك ؛ إذ أن كثيراً من الناس ينظرون نظرة ازدراء للعمل الإبداعي، كما أن هناك رغبة قوية لشراء العقارات، وشراء السيارات الفاخرة، والإنفاق الترفي والبدخي الذي لا تتحمله موارد الأمة.

وهناك أمراض خلقية كثيرة على صعيد العلاقات بين الناس، مثل قطع الرحم والجفاء بين الأهل والجيران، ومثل الحسد والتكبر على الناس، وحب الاستثناء، والانفراد بالخيرات العامة والمشاركة... وإن مشكلات الزحام وشح الموارد، وتراجع التربية الخلقية، وضعف الإحساس بالأهداف الكبرى... سوف تؤدّ المزيد من التأزم النفسي، والمزيد من الأمراض الخلقية، وذلك يحتاج إلى تأمل عميق من المصلحين، وإلى البحث عن سبل للعلاج والخلص...

إن الانحدار الأخلاقي كثيراً ما يكون صدئاً لأزمات يمر بها المجتمع ؛ فقد تنتشر الجريمة بسبب ضائقة اقتصادية، أو كبت شديد، أو وجود نماذج اجتماعية مغرقة في البذخ والترف .

وهذا كله يوصلنا إلى قناعة بضرورة ألا نعزل معالجة القضايا الأخلاقية عن معالجة مشكلات الحياة الأخرى، وهذا ما نغفل عنه في أحيان كثيرة !.

لكن لا ينبغي أن نصرف انتباهنا عن حقيقة أخرى، تتصل بالمسألة الأخلاقية، وهي أن لكل أمة (سلماً قيمياً) ترتب فيه أخلاقها في ضوء أمرين: مبادئها وحاجاتها ؛ فظروف الصحراء والبدواة حملت العرب في الجاهلية على وضع الشجاعة والكرم في أعلى السلم القيمي ؛ وحين جاء الإسلام لم يُخرج هاتين الخصلتين من سلّم الفضائل، لكنه غيّر من موقعها في التشكيل الجديد، حيث صارت (التقوى) المعيار الأهم في الدلالة على الفضل والسبق.

وفي المجتمعات الصناعية الحديثة هناك ميل قوي إلى جعل الدقة والفاعلية والإنجاز والمهارة والنجاح في أعلى السلم القيمي وهكذا...

والذي نريد أن نقوله: إننا اليوم في أمس الحاجة إلى إيجاد مدخل جديد للتنمية الأخلاقية، يقوم على منح بعض الثوابت القيمة والأخلاقية معاني جديدة أو اهتمامات خاصة ببعض مدلولاتها، بغية التخفيف من حدة وطأة التخلّف الذي يجتاح حياة المسلم، فالتقوى في حياتنا المعاصرة بحاجة إلى إثراء مفرداتها كي تتناول بعض الفروض الحضارية، مثل: الإسراع إلى العمل، وإتقان العمل، وتطوير العمل، والمحافظة على الوقت، وحسن إدارته، والعمل المؤسساتي، وترسيخ مفهوم فريق العمل، والالتزام بالمواعيد، وحسن التصرف بالإمكانات المتاحة، وترشيد الاستهلاك... وكل هذه القيم المعاصرة لها أصول ثابتة في القرآن والسنة، ويمكن من خلال التربية والموعظة الحسنة أن نجعل المسلم يشعر بحلاوة الإيمان، وحلاوة الالتزام من خلال القيام بهذه الأعمال التي تقتضيها طبيعة العصر، كما يشعر تماماً عندما يضع صدقة في يد فقير، أو عندما يقوم الليل والناس نيام!.

فالتجديد النفسي والأخلاقي ليس نسخ أخلاق وإحلال أخلاق أخرى في موضعها، وإنما هو توسيع في مدلولات بعض المفاهيم الأخلاقية، ومنحها أهمية أكبر في النسق الأخلاقي العام.

لا توجد أمة ليس لها مبادئ محددة، تعول عليها في الضبط الاجتماعي، وفي ترجيح ممكن على ممكن آخر. كما أنه ليس هناك أمة تخطط لجعل واقعها حرباً على مبادئها، وقد ضربت أمة الإسلام أروع الأمثلة في هذا السبيل، مما ليس له نظير!.

ومع الإدراك العميق للصعوبات الكثيرة التي تواجه من يريد إحداث تقدّم أخلاقي ممتاز في وسط متأزم، فلا بد من ذكر بعض المبادئ والشروط والأساليب والوسائل التي نظن أنها ذات تأثير في تحسين المستوى النفسي والخلقي لأمتنا والرفي به:

وأمة الإسلام اليوم تحاول أن تتطلق نحو آفاق واسعة المدى، عليها أن تجدد مضامين الانطلاقة الأولى التي أشعل شرارتها النبي صلى الله عليه وسلم وأهل القرون الخيرة من بعده. وهذا في الحقيقة يحتاج إلى رواد، إلى دعاة، إلى علماء من نوعية خاصّة، ومع أن كثرة عددهم أمر مهم جداً، إلا أن نوعية المواصفات والأخلاق التي يجب أن يتحلّوا بها تظل أهم من كثرة عددهم؛ فالصحابية الكرام الذين تلقوا تربية مكثّفة ومتميّزة عن النبي صلى الله عليه وسلم قد لا يتجاوزون بضعة ألاف، ولكن خصوصية سماتهم وأخلاقهم جعلت منهم قدوة فريدة، أمكنها أن تحمل بناء ضخماً متطوِّلاً، ومازلنا إلى اليوم نقتبس من بركات تلك القدوة وهداياها، من سمات هذا الذي يريد أن يصلح من شأن الأمة:

أ - صلةً قويةً بالله - جلّ وعلا - تغمر كيان المسلم، وتنقل إيمانه من حيّز الدائرة العقلية والتصديق القلبي إلى حيّز الشعور، والمعبر عنه في حديث مسلم بالإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه." وهذا لن يتأتّى إلا من خلال العبادات المكثّفة، حيث إن الإيمان أشبه شيء بشجرة وارفّة الظلال، وكلما أردنا لهذه الشجرة أن تكبر، وأن تمد أغصانها في كل اتجاه، كان علينا أن نسقيها أكثر؛ وماؤها هو العبادات والنوافل

والأذكار...

وهذه السمة كانت واضحة جداً في حياة الصحابة - رضوان الله عليهم - والسلف الصالح عامة . إن الإيمان الحي المتدفق هو الطاقة العظمى التي نحتاجها في مرحلة الإقلاع، وليس ثمة بديل لذلك . ب - الصبر وطول النفس، حيث إن الواقع الرديء الذي نعيشه ما هو إلا خلاصة لتراكمات أخطاء قرون عديدة ؛ وحتى يتحسن ذلك الواقع بصورة جيدة، فإنه يحتاج إلى زمن وجهد. وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى حين قال:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾

سورة السجدة: من آية " 24 "

وأحياناً يسيطر على الناس اليأس بسبب طول الطريق ومشاقه، وبسبب شعورهم بأن التحسن ضعيف أو معدوم.

أما الرواد، أما الدعاة الصادقون، أما العلماء الربانيون فإنهم لا ينظرون أبداً إلى ما قطعوه من الطريق، ولا إلى ما تبقى منه، وإنما يستغرقهم، ويسيطر عليهم الانشغال بواجب الوقت، والانشغال بتصحيح المسيرة، وهم بعد ذلك يشعرون أنهم لم يقدموا سوى جزء يسير من المطلوب، ولكنه جهدهم الذي يملكونه، وينتظرون من الله - تعالى - أن يتقبله .

ج - الإعراض عن متاع الدنيا وشهواتها ؛ ومع أن قدراً من ذلك مطلوب من كل مسلم، إلا أن للرواد شأناً آخر، فهم أحق الناس بالتقلل - قدر الإمكان - من متاع الحياة الدنيا، بما لا يصل إلى حد الحرمان ؛ وبظل المهم هو شعور الناس بتميز هذه الفئة المباركة في أسلوب عيشها، وفي مقاييسها للرفي الاجتماعي

إن الأمة في هذه المرحلة بحاجة ماسة إلى المال، كي تشيد المرافق العامة والمدارس والجامعات... وهي بحاجة إلى من يوضح لها بطريقة عملية منهجية جديدة في العيش بعيدة عما اعتاده كثير من الناس من البذخ والترف وإنفاق المال بغير حساب ولا أدنى شعور بالمسؤولية!

د - التضحية والعطاء السخي والكرم الذاتي، سمات مهمة فيمن يتصدى للنهوض بهذه الأمة، فعلى الرغم من أن هذه المعاني عميقة في ثقافة المسلم ومتغلغلة في وجدانه إلا أن الناس يبحثون دائماً عن القدوة والنموذج المحسوس. ولو أن المبادئ تُغيّر حياة الناس لما بعث الله تعالى الرسل، ولا أنزل الكتب، لكن مضت سنته في خلقه بأن لسان الحال أبلغ من لسان المقال، وأن المحسوس أسهل في الإدراك وأعظم في التأثير من المجرد. فحال موصول بالله في ألف أبلغ من مقال ألف في واحد .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها

أيها الإخوة الأكارم، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صاحب الخلق العظيم، اللهم صل، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين. إخوتي المؤمنين، أعزائي المستمعين..... إلى الموضوع الساخن الذي تعيشه أمتنا . إن القضية الأساسية في التعامل مع الأحداث الجسام ليس تصديق وقوعها، أو عدم تصديقه، فطبيعة العصر من حيث التواصل الإعلامي المذهل، وثورة المعلومات المتفجرة، واجتماع الأمم والشعوب في غرفة إعلامية واحدة، يلغي موضوع التصديق، أو عدم التصديق، ولكن العبرة في التعامل مع الأحداث الجسام، تحليلها التحليل الصحيح، ثم اتخاذ موقف، والانطلاق لعمل من خلال هذا الموقف، ولنضرب على ذلك مثلاً.

لو أن صاحب سيارة في أثناء قيادته لها تألق ضوء أحمر في لوحة البيانات التي أمامه، فالمشكلة ليست في تصديق التألق، أو عدم تصديقه، لقد رأى تألق هذا الضوء بأمر عينه، ولكن المشكلة في فهم هذا التألق، وتحليله، والسلوك الذي يُبنى على هذا الفهم والتحليل، فلو فهم التألق على أنه ضوء ترزيني، فتابع السير، لاحترق المحرك، وتكلفت لإصلاحه مبلغاً كبيراً، وتعطل سيره إلى هدفه، أما إذا فهم هذا التألق على أنه ضوء تحذيري، أوقف السيارة، وأضاف الزيت، وسلم محرك السيارة من الاحتراق، وتابع سيره إلى هدفه، فالعبرة لا في التصديق وعدمه، بل في فهم الحدث وتحليله.

ما هذا العالم !!؟؟ إنه عالم أحمر من الدماء التي تسفك ظمأ... ما هذا العالم الذي ليس في قاموسه إلا (القتل، التدمير، والقصف، والمداهمة، والقبض، والاعتقال، والتعذيب، والاغتيال، وأنهار من الدماء تجري...) حتى إنك لتتشك في إنسانية هذا العالم، فضلاً عن قيمه وأخلاقه وشرائعه، بل إن الإنسان وهو يشاهد هذه المشاهد الظالمة يَجْجَل أن ينتمي إلى هذا الجنس البشري المتوحش .

هل هذه حياة تعاش ؟ هل هذه حضارة تثمن ؟

هل هذه دول متقدمة أم أنها أبت إلا أن تأخذ بنصيبيها من التخلف والهمجية و إلا فيماذا تفسر تلك الأعمال الإجرامية العالمية والإرهاب الدولي ضد أبرياء وعزل وأصحاب حقوق سلبية، و كرامات منتهكة ؟

إن حياة الغاب أرحم بكثير مما نشاهده في مسرحية (الحرية والديمقراطية، وحقوق الإنسان) التي استمتعنا بالفصل الأول منها، ونحن في غفلة ساهون، وبكينا في الفصول اللاحقة ؛ كفصل (التطهير العرقي... ومكافحة الإرهاب... بإرهاب يفوق حد الوصف) لكن المخرج المخادع حاول أن ينسينا فصول الجريمة بقضايا براقية من (العولمة، التي لا تعني سوى الحيونة، أي أن نثير في الإنسان الجانب الحيواني ليس غير) .

إن نتائج الظلم لا يمكن ضبط حساباتها، ولا تقدير ردود أفعالها، وذلك أن ردود فعل المقهورين و المظلومين كشطايا القنابل تطيش في كل اتجاه، وتصيب من غير تصويب إن ردود أفعال المظلومين و الموتورين لا يمكن التحكم في مداها ولا في اتجاهها، وإنها تطيش متجاوزة حدود المشروع والمعقول، مخترقة شرائع الأديان، وقوانين الأوطان، وهي تكفر أول ما تكفر بهذه القوانين التي لم توفر لها الحماية أولاً ؛ فلذا لن تقبلها حامية لأعدائها، فإن العلاج الأول والحقيقي هو نزع فتيل الظلم الذي يشحن النفوس بالكراهية والمقت، ويعمي البصائر والأبصار عن تدبر عواقب الأمور، والنظر في مشروعيتها أو نتائجها.

حين ينتظر الناس طويلاً قبل أن ينالوا حقوقهم فمن المرجح أنهم سيتصرفون في فترة الانتظار بطريقة يصعب توقعها.

إن الحديث عن القوة النابعة من الضعف ليس دعوة إلى الرضا بالضعف، أو السكوت عليه، بل هو دعوة لاستشعار القوة حتى في حالة الضعف، إذن يجب أن نبحت في كل مظنة ضعف عن سبب قوة كامنة فيه، ولو أخلص المسلمون في طلب ذلك لوجدوه، ولصار الضعف قوة، لأن الضعف ينطوي على قوة مستورة يؤيدها الله في حفظه ورعايته، فإذا قوة الضعف تهد الجبال وتدق الحصون، كما ترون وتسمعون .

أنت قويّ، وهذا سرّ ضعفك، وأنا ضعيف، وهذا سرّ قوتي !

لذلك نستطيع أن نقابل القنبلة الذرية بقنبلة الذرية أي بتربية جيل مسلم ينهض بأمرته .

مواقف العدو وسياساته تؤكد عمق التيارات التلقيفية والاستسلامية، وتفتح الطريق واسعاً وبلا حدود أمام تيار المقاومة ولا سيما الملزمة منها، وهكذا فقد انتهى طريق الوهم، وبدأ طريق النصر، إن شاء الله .

يقول السيد الرئيس في كلمته القيمة في مؤتمر القمة المنعقد في بيروت: "من لا يمتلك الفكر المضاد للإرهاب لا يستطيع أن يكافح الإرهاب، ولا أن يتحدث عنه، ولا نستطيع أن نرى الإرهاب الأصغر، ونتعمى عن الإرهاب الأكبر، وأي طرح للإرهاب في العالم، ولا تكون إسرائيل هي محوره، فهو طرح ناقص غير موضوعي .

صحيح أن هناك متغيرات دولية ولكن الأصح من ذلك أن هناك ثوابت إسلامية وأن الباطل الكثيف الذي يركب موجة هذه المتغيرات الدولية لا يمكن أن يلغي الحق الراسخ الذي تملكه أمتنا ، فالمتغيرات الدولية تستوجب قدراً من التكيف والمناورة في الوسائل والجزئيات، لكن لا يجوز بحال من الأحوال أن نغيّر في الأهداف والمبادئ . مثال ذلك: المسلم إذا سافر والسفر تغيير بالنسبة إلى المصلي هذا السفر يجيز للمصلي القصر والجمع في بعض الصلوات ، لكن السفر لا يجيز له ترك الصلاة بحال من الأحوال .

تعلّمنا الأحداث الدامية التي نشهدها كلّ يوم في البلدين العربيين المحتلين أنّ القوة البشرية مهما عظمت فهي محدودة، وأنّ العلم مهما اتسع فهو قاصر، وأنّ الإنسان المتأله مصيره القصر إنّ اعتماده القوة وحدها، والطور الأمني وحدها، لا يحقّق الهدف ما لم يكن مصحوباً بدرجة عالية من الاستماع الجيّد إلى الطرف الآخر، وتفهم دقيق للرأي الآخر، ومراعاة مصالحه وخصوصياته، وتوفير كرامته، وما لم تحلّ مشكلات المظلومين والمضطهدين في العالم، فإنّ المشكلة تبقى قائمة، بل وربما تفاقت، فالقوة لا تصنع الحقّ، ولكنّ الحقّ يصنع القوة، والقوة من دون حكمة تدمّر صاحبها، قال تعالى:

﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾

وهذه الأمة لا يمكن اختصارها في شخص واحد فإذا ما اغتالته يد الغدر توهم المتوهمون أن المقاومة ماتت بموته .

إن الأعداء يواجهون أمة استعصت على الاحتواء والترويض، إن شاء الله، عرفت هويتها، وحددت وجهتها، وصمدت لقضيتها، بعد هذه المحن التي أصابتها، وحدثها ولذا فإن دماء الشهداء ليست إلا وقوداً يخزن في شرايين الأجيال، وإن مشاهد التشييع الجنائزية ليست إلا حقناً للغضب العام، ولئن نال الشيخ أحمد ياسين وصاحبه أمنيتهما في إحراز الشهادة، التي يتمناها كل مسلم، فإن رحم هذه الأمة ولود لهذا النمط الصعب من الرجال، وسيخلفهم زحوف إثر زحوف.

قال طفل صغير بعفوية، وهو يزاحم بجسده النحيل، ويحاول شق طريق له وسط الجموع الغفيرة التي أمّت مستشفى الشفاء في غزة: إن اغتيال هذا المجاهد الشهيد لن يحبطنا ويكسر شوكتنا، بل سيزيدنا قوةً وعزيمةً على مواصلة درب الكفاح والمقاومة، حتى تحرير أرضنا.

لئن عرف التاريخ أوساً وخزرجاً فله أوس قادمون وخزرج

لقد ألفتهم - أيها الأخوة - أن أختم الخطبة بموضوع علمي، ولكن نظراً للمحن والشدائد التي تمر بها

أمتنا، والتي تنهد لهولها الجبال، أخاطب أولئك الذين لم يحملوا هموم أمتهم، أينما كانوا في العالمين العربي والإسلامي، ولم يتألموا لآلامها، ولم يحزنوا لأحزانها، وتوهموا أن الذي يجري حولهم لايعنيهم، وهم غارقون في حفلات تقام في ردهات الفنادق، وفي أبهاء المطاعم، وفي حدائق المزارع، وفي ألعاب تافهة، وسباقات فارغة، وفي برامج ساقطة مستوردة من عالم تتناقض قيمه ومبادئه مع قيمنا ومبادئنا، تبتثها بعض الفضائيات، والتي تبذل فيها الأموال الطائلة، والأوقات الثمينة، إلى هؤلاء الشاردين أقول:

أخي في الله أخبرني متى تغضب ؟

إذا انتهكت محارمنا

إذا نسفت معالمنا، ولم تغضب

إذا قُتلت شهامتنا إذا ديست كرامتنا

إذا قامت قيامتنا، ولم تغضب

فأخبرني متى تغضب ؟

إذا نُهبنا مواردنا إذا نكبت معاهدنا .

إذا هُدمت مساجدنا وظل المسجد الأقصى .

وظلت قدسنا نُغصب .

ولم تغضب .

فأخبرني متى تغضب ؟

عدوي أو عدوك يهتك الأعراس .

يعبث في دمي لعباً

وأنت تراقب الملعب

إذا لله.. للحرمان.. للإسلام لم تغضب

فأخبرني متى تغضب !؟

رأيت هناك أهوالاً

رأيت الدم شلالاً

عجائز شيعت للموت أطفالاً

رأيت القهر ألواناً وأشكالاً

ولم تغضب

فأخبرني متى تغضب ؟

فصارحني بلا خجل.. لأية أمة تُنسب !؟

فلست لنا ولا منا ولست لعالم الإنسان منسوباً

ألم يحزنك ما تلقاه أمتنا من الهول

ألم يخجلك ما تجنيه من مستنقع الحِلِّ

وما تلقاه في دوامة الإرهاب والقتل

ألم يغضبك هذا الواقع المعجون بالذلِّ

وتغضب عند نقص الملح في الأكل!!

ألم يهزرك منظر طفلة ملأت

مواضع جسمها الحفرُ

ولا أبكاك ذاك الطفل في هلعٍ

بظهر أبيه يستترُ

فما رحموا استغاثته

ولا اكثرثوا ولا شعروا

فخرَ لوجهه ميتاً

وخرَّ أبوه يُحتضرُ

متى التوحيد في جنبك ينتصرُ؟

أتبقى دائماً من أجل لقمة عيشك

المغموس بالإذلال تعتذرُ؟

متى من هذه الأحداث تعتبرُ؟